

تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي

الدكتور: ابراهيم حركات

أصول الاسترقاق :

ليس للاسترقاق الجماعي أصول محددة تاريخيا، وهو على أي حال أحد أقدم مظاهر الحياة البشرية التي نشأت عن الحروب والغارات وتسلط الأقوياء على الضعفاء. وفي وقت موغل في القدم، امتد الاسترقاق الى ركاب السفن وملاحها بعد تعرضهم لعمليات القرصنة. والدوافع الحقيقية للرق قد تكون اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية. وقد وجد الرق لدى شعوب قديمة كالساميين والاعريق ومصر الفراعنة. وكان الرقيق يكوّن نسبة عالية من المجتمعات الخاضعة للرومان حيث يرغب العبيد على خدمة الأرض واستخراج المعادن مع سوء معاملة ونقص في التغذية، وكان هذا يؤدي الى فرار بعضهم وإلى ثورات جماعية⁽¹⁾، ولكن الكنيسة اهتمت الى حدّ بأوضاعهم دون أن تعمل على إلغاء الرق. والواقع أن الرق اكتسى أكثر ممن مظهر بأوروبا لفترة

طويلة. وفي عهد الامبرطورية الرومانية، وعلى مشهد من الكنيسة كانت طبقة الفلاحين الفقراء قد فقدت حريتها وازدادت تعاستها لصالح الملاكين (2) . وفي أوائل العصر الوسيط كانت طبقة الفلاحين وصغار الملاك في ظل الحكم الكارولنجي قد تحولت الى ملكية حقيقية للسلادة وعاهل فرنسا (3) قبل أن تدخل أوروبا الغربية عهد الاقطاع الواسع ابتداء من القرن 9 م إلى القرن 13 وحتى إلى ما بعده حسب المناطق. وهكذا عوضت طبقة الفلاحين طبقة العبيد في ظل النظام الاقطاعي الأوروبي. وأخضع الفلاحون لخدمة الأرض التي نشأوا بها والتي ينتقلون معها من ملكية إقطاعي إلى آخر، وكان هذا أيضا صنفا من الاسترقاق الداخلي فيما بين المواطنين، وهو لم يختف من أوروبا الغربية إلا حوالي القرن 17 واستمر بأنحاء أخرى كالجزر وروسيا خلال فترة مهمة من القرن التاسع عشر (4)، حيث لم تؤثر دعوة الثورة الفرنسية في هذا المجال ولا قرارات الغاء الرق رسميا من إنجلترا وفرنسا وغيرهما .

الرق الداخلي بإفريقيا :

لم يختلف وضع إفريقيا في هذا المجال عنه في أية بقعة من العالم. فاستعباد المواطن لأخيه المواطن عرفته هذه القارة من عهود متطاولة في القدم. فالفقر المدقع كان يلجئ الناس الى بيع أبنائهم وبناتهم للقبائل المجاورة والبعيدة، وغارات القبائل والامارات المحلية تنتهي بأسر جماعي للفريق المغلوب، وهذا فضلا عن البيع الطوعي للتجار الوافدين من أقطار القارة، فلا يمكن والحالة هذه، أن نعتبر الاسترقاق الخارجي وحده هو الذي عانت منه إفريقيا طالما أن شعوبها كلها فيما يبدو مارست الرق الداخلي بالدرجة الأولى .

وهكذا فإن خدمة الأرض في السودان الغربي تركت لطبقة العبيد استنكافا منها في الوسط الاستقرائي. ويأتي العبيد في أسفل السلم الاجتماعي في بعض جهات المنطقة (5) وعلى سبيل المثال فهم في جنوب

نيجيريا يأتون بعد المحكوم عليهم قضائيا والمجردين من حقوقهم المدنية. وما زالت الآثار الاجتماعية لهذا النظام بادية حتى يومنا هذا⁽⁶⁾ . وعلى مشهد من الغزاة والمستعمرين الأوروبيين كانت قبيلة اليوروبا العتيدة بكل من الداهومي ونيجيريا تمارس الرق الداخلي ويقوم ولائها أنفسهم بتقديم أسرى المنطقة الى التجار الأوروبيين الوافدين على الساحل في صفقات تجارية خلال القرن 18 م⁽⁷⁾ .

ومن دلنا النيجر يشحن العبيد الى البرازيل لخدمة المزارع، وكان الحصول عليهم بأثمان بخسة يتقاضاها زعماء القبائل⁽⁸⁾ . وفي الواقع عرفت إفريقيا الرق الداخلي من عهود سحيقة، حيث إن الغارامنت الذين يعدون من أقدم سكان الشمال ويشبههم البعض بالطوارق الحاليين⁽⁹⁾ كانوا يعتمدون على طبقة العبيد التي ظلت موردا بشريا واقتصاديا أساسيا للطوارق وعموم صنهاجة حتى عهد قريب جدا. ويرتكز التسلسل الطوارقي على ثلاث طبقات رئيسية : الأعيان والأتباع (إمراد) والعبيد السود⁽¹⁰⁾ .

ودخل عنصر السودان بكثرة في جيوش الأنظمة الوطنية الاسلامية، فالزيريون الصنهاجيون ومعاصروهم المرابطون الصنهاجيون أيضا جلبوا آلافا من السودان شراء واتخذوا منهم رماة وشارك هؤلاء الرماة بفعالية في حروب الأندلس. وكان في بلاطات الحكام العديد من مناطق إفريقيا جوار وعبيد من إفريقيا وخارجها. ومعلوم أن عشرات من الخلفاء والملوك والقادة المسلمين فضلا عن علماء ومثقفين بارزين هم من أمهات من الرقيق أعتقن أو بقين مملوكات، وينتمي عدد كبير منهم إلى جهات مختلفة من إفريقيا .

وكذلك كان لدى الفاطميين وحكام المغرب بسائر جهاته فرق من السودان المجلوين شراء. وقد وقف أحمد بابا الصنهاجي بصلابة ضد اقتناء الرقيق من المسلمين خلال القرن 17 م وكتب بهذا الشأن رسالة قيمة بعنوان : معراج الصعود الى نيل مجلب السود وقدم فيها عشرات الحجج الشرعية في منع استرقاق المسلم للمسلم⁽¹¹⁾، وتعاطف معه المجتمع المغربي

وحتى عدد من شخصياته الرسمية بعد نفيه من مالي الى مراكش في عهد أحمد المنصور الذهبي .

الاستيطان العربي وتجارة الرقيق :

توافد العرب قبل الميلاد وبعده على سواحل إفريقيا الشرقية تجارا وغزاة وكان من بينهم السبائيون الذين أنشأوا علاقات تجارية مع الكوشيين ثم اهتموا بغزو أثيوبيا في أوائل العصر المسيحي وكان أسراهم يباعون في أسواق النخاسة بفارس⁽¹²⁾ . ولا يمكن أن يكون العرب هم الذين أنشأوا تجارة الرقيق بإفريقيا كما وهم أندري جوليان⁽¹³⁾ فقبلهم كان الغارامنت والاثيوبيون فضلا عن نشاط الرومان والاغريق في هذا المجال. لكن جوليان يرى أن العرب عندما توغلوا في مناطق أفريقيا لم يحاولوا اخضاع القبائل بالقوة بل تعاملوا مع أهل إفريقيا الشرقية كمجرد تجار .

ويرى دونيز بولم⁽¹⁴⁾ أن دخول الاسلام إلى إفريقيا الشمالية كان نتيجة قرار الرسول محمد ﷺ بتحويل حدة الشجاعة في رعيته، على المقاطعات الضعيفة من بلاد الفرس والبيزنطيين كما قال. ثم يضيف : « ... فكان القراصنة وتجار الرقيق، وكانت غزوات الرحل تهاجم المقيمين، فبدا الأمر، وكأن الاسلام لم يصنع جديدا غير ما كان له على صعيد الايمان » .

ويظهر أن مثل هذه النظرة الضيقة عن بداية الزحف العربي بإفريقيا في ظل الحكم الاسلامي وما نتج عنه مباشرة أو لاحقا من ممارسات سلبية، أعطت انطبعا قاتما لدى الكتاب الأوربيين عن نشاط العرب في مجال تجارة الرقيق بوجه عام. وهذا ما نجده عند دونالد ويدنر وبعض كتاب موسوعة تاريخ البشرية مثلا⁽¹⁵⁾، وهؤلاء بالذات يرون أن حجم تجارة الرقيق ومدى انتظام هذه التجارة عند العرب لا يعرف عنهما شيء حتى الآن .

والحقيقة أن الشيطان العربي الذي رافق الزحف الاسلامي واكبته ممارسات غير طيبة إطلاقاً على يد القادة الأمويين أو بعضهم. وهكذا سمح عمرو بن العاص لأهل بركة من لواتة أن يقدموا أبناءهم رقيقاً الى السلطة بدل المال نقداً⁽¹⁶⁾. وقام عمر المرادي عاهل المغرب بتخميس البربر حتى من المسلمين وأدى ذلك إلى ثورة عارمة بالشمال الافريقي ونشأة حركة الخوارج به. وشحن موسى بن نصير آلاف من شباب المغرب الكبير ومن قاداته الوطنيين ونسائه هدية إلى الخلافة الأموية كما أثبتت ذلك مختلف روايات المؤرخين. وبدلاً من ذلك، كان سلوك قادة آخرين كابن أبي المهاجر وحسان ابن النعمان في مستوى تسامح الاسلام وحسن رعايته للكرامة البشرية .

وإذا كان الأسرى يكونون شطراً كبيراً من طبقة الرقيق في فترة الفتوح الاسلامية، فإن مواقف القادة تختلف بحسب تأويلاتهم لطبيعة الفتوح من حيث كونها عنوة أو صلحاً، ومن حيث قبول المناطق المفتوحة للاسلام أو رفضه. وهذا هو ما فتح الباب للتجاوزات المشار اليها. وقد سبق أن ارتكب بعض قادة العرب أخطاء في هذا الباب أيام الرسول ﷺ وبعده، كخالد ابن الوليد بعد فتح مكة وقتله لجماعة من ضواحيها بعد اسلامهم. لكن الرسول تحمل ديتهم وعاتب خالداً دون أن يقتص منه نظراً لكفاءته القيادية النادرة ومواقفه الايجابية .

وباستثناء اثيوبيا قبل الاسلام ومنطقة الشمال الافريقي بعده فإن انتشار العرب خارجهما كان في جل الحالات لدوافع تجارية. ولذلك كان اتصال العرب بجنوب الصحراء متقطعاً ومقتصرًا على النشاط التجاري الذي تدخل فيه دون شك تجارة الرقيق. على أن البكري تحدث عن أعقاب محتملين للجيش الأموي رافق أجدادهم عقبة في توغله في إفريقيا الغربية، وربما اكتفى عقبة بإرسال بعض قواته إلى هذه المنطقة. وذكر باذل دافدن أن عدداً من يهود سوريا عملوا على تأسيس غانا حوالي سنة 300 ميلادية (17) وبذلك تعرف المهاجرون العرب والقادمون من البلاد العربية على

إفريقيا الغربية في وقت مبكر. وقد أدخل السوربون الجمل الى إفريقيا في ظل الحكم الروماني .

وخلال الفتوح الإسلامية التي امتدت الى السنغال والمدن المتاخمة للصحراء تحدثت الأخبار عن عملية توغل سنة 734 بالمنطقة انتهت بمقايسة عربية سودانية بين نسيج الشمال الافريقي وملحة وعبيد السودان وصمغه وذهبه. وتحدث البكري عن القوافل التي كانت تأتي من مدن جزائرية كتلمسان وتاهرت وبسكرة وحرمة إلى غانا واللاغوس وغاوو (18). واشتهرت غانا بأهميتها كأحد المراكز الرئيسية لاستخراج الذهب بإفريقيا خصوصا منذ القرن العاشر م (19). وفي هذه الفترة أو قبلها بقليل تحدث اليعقوبي عن حركة النخاسة فيما بين تشاد ومراكز من ليبيا (20) وكانت المنطقة الممتدة شمال بحيرة تشاد تزود المراكز الشمالية بالرقيق. وتتجه القوافل من أقطار المغرب إلى مراكز النخاسة بنهر السنغال حيث تصحب الرقيق وتقتني كميات من الذهب والعاج (21).

وتحدث ابن بطوطة في القرن 14/8 م عن حسن التعايش بين أهل مالي ومن يخالطهم من السكان البيض، وهم على العموم الوافدون من أقطار المغرب (22). وأورد حادثة غريبة وقعت في بلاط منسى سليمان، وهي أن هذا الملك استقبل وفدا من إحدى القبائل المتوحشة وقدم اليهم خادمة فذبحوها واتهموها شاكرين (23). ولا يمكن معرفة مدى صدق هذه النازلة، فابن بطوطة على الرغم من القيمة العلمية والعالمية لرحلته لا تخلو رواياته أحيانا من مبالغات لا تصدق، وإن كان معلوما أن آكلي اللحوم البشرية بإفريقيا لا يزال لبعضهم وجود في قليل من أدغالها. ووجد ابن بطوطة في قصر الأمير فريا سليمان عددا من الجواري بعضهن من البيض، وأمداه الأمير بغلام صحبه الى المغرب (24).

وعرف عهد منسى موسى (1307 – 1332) ازدهارا واسعا في علاقات مملكة مالي بالعالم الاسلامي وبالأخص المغرب الكبير ومصر. وكان

هذا العاهل متدينا، وله اهتمام كبير باقرار الأمن في امبراطوريته الواسعة. ولذلك اتسع التبادل التجاري بين مالي والجهات المذكورة، بالرغم من عدم وجود وعي ديني وثقافي كاف في الأوساط الشعبية التي ظلت متأثرة بالوثنية⁽²⁵⁾. وكان هناك حدث بارز في حياة منسى موسى المعروف أيضا بغونغو موسى، وهو قيامه بفريضة الحج ومروره بمصر في طريقه الى مكة. وحمل في رجوعه الكثير من مؤثرات المشرق خصوصا مصر وصحب معه الشاعر الغرناطي أبا إسحق الساحلي. وفي هذه الفترة بالذات وخلال قرنين بعدها أصبحت تمبكتو عاصمة مالي مركزا ثقافيا إسلاميا ذا اشعاع إفريقي، ولم تعد مالي مجرد أرض يغامر فيها تجار الشمال بحثا عن الذهب والرقيق. ففي نهاية القرن الخامس عشر، كانت الابل التي تقطع الصحراء عبر الهكار وبتجاه مراكز مالي، تقدر باثني عشر ألف سنويا. وكانت طرق التجارة كما قال باذل دافدسن هي نفسها « التي يسير فيها العلماء في غدوهم ورواحهم من معاهد العلم هنا وهناك، ويسلكها الحجاج في طريقهم لمكة ومنها. وكان من نتائج هذه الحركة أن تطورت العملات من كل لون : من الذهب والنحاس وموازين السلع وقطع المعدن والملح »⁽²⁶⁾.

وظهر التأثير العربي واضحا في مملكة سنغاي التي وجدت شواهد قبور بها منقوشة بالعربية تعود الى نهاية القرن 11 م . وتكونت سنغاي في وسط النيجر حيث كانت لها حضارة مكتوبة ذات جذور عربية⁽²⁷⁾ بالإضافة الى جذور وطنية وبربرية⁽²⁸⁾. إن سنغاي التي عرفت تقلبات الزمن عبر تاريخها الاسلامي لقيت مصرعها على يد السعديين الذين جردوا حملة من مراكش سحقت مقاومة اسكيا اسحق. والحقيقة أن هذه الحملة لم تكن لاستعباد أهل سنغاي، فإن الرقيق الذي جلبه السعديون من هذه الحملة لم يزد على بضع عشرات فيما يظهر⁽²⁹⁾. بل إن السعديين كانوا يتهيأون لحرب شاملة ضد إسبانيا وفي عقر دارها، وخطط المغرب طويلا لهذه الحرب وأجرى من أجلها اتصالات دبلوماسية مع الانجليز الذين كانوا في حالة عداء مع

إسبانيا، كما تمت مفاوضات مع البلاد الواطئة (هولندا) وكانت قد تخلصت من الاحتلال الأسباني وبدأت تقوي نفسها على الصعيد البحري. وأجرى المغرب مفاوضات مع دولة سنغاي من أجل استغلال ممالخ تغازي التي احتج المغرب بملكيتها وحاول العاهل المغربي عبثا أن يقنع نظيره ملك سنغاي باستغلال مشترك للممالخ أو بالتنازل عنها للمغرب من أجل تجهيز الحملة المغربية الى إسبانيا. وحيث إن اسكية رد بشكل خشن على عرض الطرف المغربي وأعلن الحرب فقد انتهى الأمر باستيلاء جيش السعديين على سنغاي ودك عاصمتها جاو في مطلع القرن 17 م . والواقع أن المؤرخ الافريقي المعاصر عبد الرحمن السعدي وهو زنجي وليس من دولة السعديين، كان منصفاً في الحديث عن دور السعديين بسنغاي ومالي، فنوه بدور القادة العسكريين الذين أحسنوا إدارة المنطقة، وانتقد سوء سيرة آخرين منهم⁽³⁰⁾. ومهما يكن من نتائج هذه الحملة، فإن ملوك سنغاي يتحملون الكثير من مسؤولياتها إلى جانب الطرف المهاجم .

ويرى ويدنر أن إفريقيا الشرقية لم يكن بها زنوج حتى نهاية القرن الخامس للميلاد عندما بدأت تخرج طلائع الزنوج إلى هذه المنطقة من الغابة قرب البحيرات العظمى ثم انضافت إليهم أفواج من جهات أخرى بعد أن سبق السبايون الى الاستقرار هناك منذ ما قبل الميلاد⁽³¹⁾. أما ما بعد الفتح الاسلامي فإن عرب عُمان تقاطروا على المنطقة يتبادلون الذهب والعبيد بمنتجات الهند وفارس خصوصا القماش والأدوات المنزلية⁽³²⁾ وتكونت السواحلية كلغة مزيجية من البانتو والعربية تكتب بحروف عربية أيضا. وكان في دور العرب وفارس والهند أعداد كبيرة من الخدم الذين ينتمون الى إفريقيا الشرقية، دون أن يستخدموا في الزراعة على نطاق واسع⁽³³⁾. غير أن العراق لجأت الى مساعدة الزنوج من هذه المنطقة بالذات في العصر العباسي حسبما يذكره بروكلمان في معرض ثورة الزنج، وتركزت هذه المساعدة في تجفيف السباخ واستصلاحها للأغراض الزراعية. وانضم الزنج إلى شخص فارسي في خلافة المهدي سنة 255 وتسمى بعلي

بن محمد، ورفع نسبته الى علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وتظاهر بأنه خارجي من الأزارقة حتى يجلب اليه طبقة الزنوج الذين كانوا غاضبين من سوء أحوالهم واقتصار معاشهم على قليل من المواد العينية دون أجرة نقدية. ولم يظهر قائد هذه الثورة ميوله الشيعة الفارسية والتي لا توافق أفكار الزنج في التحرر واختيار قيادتهم بحرية. واستطاع الثائرون أن يستولوا على البصرة بعد سنتين من قيام ثورتهم ثم امتد نشاطهم إلى سائر العراق والبحرين وخوزستان والأهواز. وذكر المسعودي وغيره عددا من الأعمال الفظيعة التي مارسها الزنج في ثورتهم والتي كان من بينها استرقاق عدد من الأشراف رجالا ونساء، وتزامنت الثورة مع تحركات يعقوب الصفار بفارس واستبداد ابن طولون بمصر. وتمكن الموفق العباسي من سحقها بعد أن زيد من أربعة عشر عاما قضتها الامبراطورية العباسية في حروب دموية ذهبت بمئات الألوف من الناس وتخلص أرقاء الزنج من عبوديتهم كما قتل قائد الثورة المذكور في صفر 270 هـ⁽³⁴⁾، بعد أن سقط في معارك الزنج عدد من قواد الجيش العباسي. واهتم معاصرو الثورة بالكتابة عنها وعن قائدها . وكان من بينهم الفضل بن سهل أحد كبار الشخصيات القديمة في بلاط المأمون⁽³⁵⁾ .

وبصرف النظر عن القاعدة الزنجية للثورة، فإن قيادتها تنطلق بالدرجة الأولى من ميول فارسية هدفها إعادة الأجداد الفارسية وسلطة الفرس على المنطقة، وهي أيضا محاولة قام بها يعقوب الصفار وأبو مسلم الخراساني وقادة آخرون من الفرس. ولذلك استهدفت سيوف الثورة قواد الترك الذين صرع منهم عدد كبير .

ومن المرجح أن زنج العراق تم استفادتهم على يد تجار العرب الذين استقروا بشرقي إفريقيا وأنشأوا بها مراكز تجارية كما في مقدشيو ومباسا وزنجبار والموزمبيق وكيولا وسوفالا. وإذا كانوا لم يحاولوا نشر الاسلام هناك بالقوة مكتفين بالاثراء كما يقول جوليان⁽³⁶⁾، فإن الاسلام عرف طريقه سلما الى المنطقة من طريق الاحتكاك مع الزنوج. وفي الوقت الذي كان الاستيطان

العربي سلما حسب جوليان، كلف توغل العرب في الداخل خسائر وجهودا بشرية في الفترات الأخيرة من السيطرة العربية كما يذكر ويدنر (37) .

وفي الواقع لم يؤسس العرب إمبراطورية على الساحل الشرقي، ولكنهم أسسوا عدة إمارات تتمتع كل منها باستقلال كامل وواجهت التوغل الأوروبي بإصرار منذ القرن 17 وحتى القرن 19 . وقد عرفت إفريقيا الشرقية ببلاد الزنج عند العرب كما أطلقت على إفريقيا الغربية بلاد السودان منذ العصر الوسيط (38) .

وخرجت بلاد النوبة عن الحكم الاسلامي المباشر لفترة طويلة، ولكن بعد فتح مصر تم الاتفاق مع قبائل النوبة على أن تسلم الى خزينة الخلافة سنويا، مجموعة من المنتجات المحلية مع عدد من سكان المنطقة. وتناول المقريري في خطط مصر، هذا الموضوع بشيء من التفصيل. غير أن الفاطميين اهتموا ببلاد النوبة كما هو واضح من كتب الجغرافيين كابن خرداذبه والاصطخري وغيرهما. ويظهر أن النوبة لم تكن تدخل في مصطلح بلاد الزنج التي تمتد حسب النصوص من زنجبار حتى سوفالا، وهذا حسب تاريخ البشرية (39)، ولكن هذا التحديد ينبغي أخذه بتحفظ .

على أن التجار العرب ظلوا ينقلون العبيد الى مصر وغيرها من المناطق المجاورة سواء في ظل حكم المماليك أو في ظل السيادة الاسمية للدولة العثمانية. وزحفت جيوش مصر في عهد محمد علي إلى أعالي النيل ثم الى شمالي يوغنده بينما كانت أوروبا تندد بسياسة الاسترقاق التي تحمل تجار زنجبار مسؤوليتها ولتعمل على وقف الاسترقاق بإفريقيا لأسباب ظاهرها انساني وباطنها ديني وسياسي واستعماري .

طبيعة الرق في ظل الحكم الاسلامي :

لا جدال في أن الاستيطان العربي لم يخل من سلبيات في مجال الرق

كما في غيره، فهناك اصطدامات دامية كلما تعلق الأمر باسترقاق قسري. وهناك تعسف في معاملة الجماعات التي دخلت الاسلام في عهد الحكم الأموي واعتبرت رقيقا، ثم إن الصراع العقائدي في بعض جهات إفريقيا كما في إثيوبيا والنوبة كان لا يخلو من مواجهات عنيفة. وبالمقابل، فإن أزهر عصور إفريقيا كقارة، هو الذي شهدته في ظل الحكم الاسلامي الوطني. ففي حظيرة هذا الحكم نشأت أقوى الدول وأضخم الممالك الافريقية. وفي نطاقه عرفت إفريقيا لأول مرة صلات واسعة بأقطار العالم، وتجار العرب بالأخص قاموا بدور كبير في هذا المجال. وهم الذين عرفوا العالم الأوروبي بمنتجات إفريقيا وحضارتها وأنماطها الثقافية .

وقد ظل الرق العربي محصورا في النطاق الداخلي باستثناء ما كان يصدر من رقيق الى آسيا أو الأندلس. أما أوروبا بوجه عام، فنادرا ما كان يصلها الرقيق الزنجي⁽⁴⁰⁾ عكس الرقيق الأبيض المأسور بطريق القرصنة أو الحروب، والذي كان ضحاياه من سكان الجزء الشمالي من إفريقيا .

ومن ناحية أخرى، فإن الزنوج إذا كان المستعمر الأوروبي سخرهم بشكل جماعي لخدمة المزارع والأعمال الشاقة، ففي ظل الاسلام العربي والأمازيغي كان الزنوج موضع ثقة الحكام والسكان حرسا وجندا وخداما ومدبري بيوت .

والحق أن الرق لم يكن سلعة أساسية لدى العرب، بشهادة باذل دافدسن⁽⁴¹⁾ . بل إنها لم تكن أساسا للعلاقة بين العرب والقارة كما كانت كذلك عند الأوروبيين⁽⁴²⁾ . ويؤكد باذل أن العرب لم ينصرفوا للنخاسة إلا في القرن التاسع عشر، وأن أساس تعاملهم هو تجارة الحديد والذهب والعاج .

أما دونيز بولم⁽⁴³⁾، فيرى الطابع العربي والاسلامي بمنظار حالك : « اللغة لم تلعب إلا دورا ضعيفا، وتأثير الفن العربي ظل ضعيفا أيضا، وأخيرا كبرى المصائب أنه من التشاد حتى النيل كان صيد العبيد

يحتاج كل السودان الأوسط، أما الطابع الأكثر انتشارا من بين الطوابع الإسلامية، فكان اللباس : ثياب فضفاضة، وكوفية وعقال. كانت كلها شيئا مضادا لعري الفلاحين السود، وكانت أيضا، شارة الغنى والتفوق الاجتماعي في كل السودان » .

اعتبر الاسلام الناس إخوة لا يميزهم إلا التقوى والايمان. ولهذا المبدأ المنصوص عليه في القرآن تأثير واضح في السلوك العربي والاسلامي بإفريقيا، بالرغم من بعض المؤثرات الطبقية الداخلية التي ورثها الأفارقة أنفسهم عن أسلافهم الوثنيين كما هو الشأن في الطوارق مثلا. فلم يكن غريبا والحالة هذه أن يكون لعناصر أو جماعات من الزنوج في حالات تاريخية كثيرة نفوذ بالغ في مناطق يقطنها البيض. فمؤسس دولة بني مدرار بسجلماسة سنة 140 هـ كان زنجيا. والثورة الزناتية العارمة التي حدثت انطلاقا من الجنوب التونسي منذ 326 هـ / 938 م ضد الحكم الفاطمي قادها أبو يزيد صاحب الحمار الذي هو من أب زنجي .

وفي القرن الرابع الهجري (العاشر م) تسلم عرش مصر، كافور الاخشيدي الذي كان فيما مضى عبدا واستقبل في بلاطه المثقفين وكان أبرزهم الشاعر المتنبي .

وكان الزنوج هم العمود الفقري في جيش المرابطين. وبرز منهم قواد كبار في عهد العلويين بالمغرب حتى مطلع القرن العشرين، وتولى أحدهم (باحماد) منصب وصي على العرش ورئيسا للحكومة المغرب وكان في حكومته عدد غير قليل من أسرته ذات الأصل الزنجي .

ونال عدد كبير من علماء افريقيا الغربية صيتا ومكانة بالشمال الافريقي ومنهم أحمد بابا الصنهاجي المذكور سابقا، وعمر أقيت وغيرهما ممن تناولتهم كتب التراجم أو تركوا هم أنفسهم آثارا مكتوبة .

أما أروع شيء في الاسلام الافريقي، فهو أنه خضع في نشره بغالب

القارة، للعمل الوطني الداخلي، وليس لغير سكان القارة الأصليين إلا نصيب محدود أو عابر. فالحملة العربية في صدر الاسلام لم تخلف إلا قليلا من المسلمين في مصر، والاسلام بشهادة المقرئ في الخطط، وفي معرض حديثه عن الفتح الاسلامي تطلب نشره بمصر قرونا لأن الحكام المسلمين لم يلجأوا الى القوة في نشره كما يدل على ذلك طول الفترة، وفي افريقيا الشمالية انتكس الاسلام بسبب التعسف الأموي وحلت محله ثورة عارمة ضد العرب، ثم تمزق في العقيدة وظهور حركة الخوارج. والبربر ساندوا الأدارسة في نشر الاسلام الذي لم يكتمل ويتوحد مذهبا بالمغرب إلا على يد المرابطين القادمين من الصحراء، وفيهم مجموعات غير قليلة من الزنوج، وبفضلهم امتد الاسلام الى عموم افريقيا الغربية، ثم تكامل العمل الاسلامي بجهود ملوك مالي والحركة التيجانية الداخلية بالسنگال والأقطار المجاورة لها. وبفضل بعض الملوك المحليين بكاتم وبورنوفي في مطلع القرن 12 م، انتشر الاسلام بتشاد وتمسك به هؤلاء الملوك بشكل عميق، وأنشأت تشاد علاقات جيدة بجيرانها لا سيما تونس، كما أن قوافلها سيطرت على طرق تجارية تجاور النوبة وتمتد في أعماق ليبيا (44) .

ويتضح من كل هذا أن عملية الرق لدى العرب في افريقيا لم تكن أسوأ منها لدى السكان المحليين، وأن الرق كان ثانويا بالنسبة للأنشطة التجارية والاقتصادية الأخرى، ثم إن هذا الرق لم يخدم أهدافا استعمارية : التصدير بالآلاف الى أمريكا كما فعل الأوروبيون واستغلال الزنوج في المزارع والطرق والغابات دون تحسين ظروفهم دون المعاشية والاجتماعية. واللغة العربية لم تحتج إلى ضغط وقهر لنشرها، والفن الاسلامي لم يكن من الممكن انتشاره على مدى واسع لفقر المجتمعات الزنجية واعتمادها على حكوماتها الوطنية. وباللغة العربية كتبت آلاف عديدة من المخطوطات في افريقيا الغربية والتشاد وما وراء الصحراء شمالا. والفن العربي وجد طريقا واسعا الى جزء مهم من افريقيا الشرقية، ولا كوفية ولا عقال في معظم افريقيا

الاسلامية حيث يتأثر الزي بالبيئة والطابع المحلي، ولا يختلف تواضع الزي الزنجي في الطبقة الفقيرة عنه في الأوساط الضعيفة بشمال القارة أو ابلاد الاسلامية خارجها. وهناك زراعات مهمة أدخلها العرب الى اعماق إفريقيا كالأرز والقطن وغيرهما مما أورده جغرافيون كالحسن الوزان ، ورحالة كابن بطوطة. وتأتي انتقادات دونيز بولم وأمثاله تارة عن جهل وتارة عن تجاهل، وفي كلتا الحالتين تكون الجوانب السلبية البعيدة عن الحقيقة تبريرا للدور الأوروبي بالقارة. فماذا كان هذا الدور في مجال الرق خاصة ؟

الدور الأوروبي في مجال الرق :

تعرف الأوروبيون على القارة الافريقية منذ العصور القديمة. ورحلة حنون الفينيقي ألقت أضواء على السواحل الغربية والشمالية. ولا نعرف على وجه التحديد مدى التوغل الروماني في افريقيا لأن الروايات المتداولة غالبا ما تحده بتخوم شمال الصحراء الكبرى. وحسب مؤرخ محدث (45) فإن المعلومات الفينيقيّة لم يتم استغلالها بعدهم، وأن عشرين قرنا مضت قبل أن يتم للأوروبيين التعرف على شكل القارة الافريقية. ومن أحدث الاكتشافات كميات هامة من العملة الرومانية تعود الى القرن 3 م عثر عليها بساحل العاج (46). وهناك بعض الحملات التي جردها الرومان في أوقات متباعدة عبر الصحراء الكبرى وبلاد النوبة (47) .

وأخيرا فإن المهجومات القوية التي قام بها النرمان انطلاقا من القرن التاسع على سواحل إسبانيا والمغرب تمكن سكان البلدين من ردها. وحسب باذل دافدسن، فإن المعرفة الجغرافية لدى الأوروبيين عن إفريقيا تبدأ بشكل دقيق، انطلاقا من الخارطة التي وضعها يهود مدرسة ميورقة بأسبانيا وعرفت بخارطة كاتالان التي رسمت سنة 1375 م (48) وتحدد أجزاء مهمة من إفريقيا الغربية، بينما رسمت حدود الجنوب للأمير هنري الملاح سنة 1459، وبفضلها قام بارثلميو دياز بدورته حول رأس الرجاء الصالح. وهكذا فإن الكشف

البرتغالية كانت مقدمة لباقي الكشف الأوروبية. غير أن أول استيطان أوروبي في أعقاب العصر الوسيط خارج المنطقة المتاخمة للبحر المتوسط هو الذي تم بإنشاء مستعمرة بجزر الخالدات على يد النرمندي Béthen court سنة 1404 م بعد اكتشافها قبل ذلك .

إن مطلع القرن 15 م يمثل عصرا جديدا في علاقة أوروبا بإفريقيا وتطور الرق بالنسبة لهما معا. فقد نشطت السفن الايبيرية وبخاصة البرتغالية، في عمليات القرصنة التي كانت تمارس في عرض البحار منذ أن عرف البشر ركوب البحر. وقراصنة لشبونة هم الذين حرضوا حكومة بلادهم على الاستيلاء على سبته سنة 1415 م⁽⁴⁹⁾. وقد أصبحت سبته مستعمرة برتغالية وتم استرقاق عدد من سكانها. وافتتاح سبته كان مقدمة للانتشار البرتغالي والأسباني بسواحل الشمال الافريقي ثم للتوغل الأوروبي بوجه عام. ومن ناحية أخرى سمح افتتاح سبته بمراقبة خروج الذهب السوداني، وهذا الى جانب جبل طارق من العدو الأخرى، وفور ذلك اتجه البرتغال الى ذهب غينيا. وفيما بين نهري السنغال وغينيا كان يتم شراء الزنوج من وسطاء بربر وزنوج، وربما لجأ البرتغال الى شن غارات للاستيلاء على الأسرى⁽⁵⁰⁾. ثم حاولوا التوغل عن طريق المبشرين في أواخر القرن 15 م فتنصر عدد من البانتو وبعض زعماء الكونغو، ثم ما لبثوا أن تراجعوا عن المسيحية واستمر بعض المبشرين في الاقامة بالمنطقة لكن اهتمامهم تحول الى امتلاك الجواري والعبيد بدلا من عمليات الدعوة⁽⁵¹⁾. وأسس البرتغال زراعة قصب السكر في ساوتوميه الاستوائية، وهي زراعة عرفت أقطار ما وراء الصحراء شمالا قبل قرون عديدة، كما أدخلها العرب الى إفريقيا الغربية أيضا. وبدأ شحن العبيد بالقوة الى المزارع الجديدة، بينما كانت أجزاء أخرى من إفريقيا الغربية تزود بلاد البرتغال نفسها بأعداد ضخمة من الرقيق حتى أصبح أكثر من السكان المحليين في بعض جهات البرتغال⁽⁵²⁾. وبعد 1530 م لم تعد غامبيا والسنغال والكونغو تشبع حاجة البرتغال الى الرقيق، فقد توسعت حاجتهم

والاسبان الى الرقيق في كل من البرازيل وكوبا وأمريكا الشمالية والجنوبية. واتسعت الاحتكارات التجارية تدريجيا لتشمل إفريقيا الشرقية والخليج العربي والهند وغيرها .

وفي ساحل الذهب أقام البرتغال في مجموعة من المحطات التجارية والحصون، وعقدوا تحالفات مع السكان تتضمن بنودها تزويد البرتغال بالعبيد، وهي تحالفات تتم بما يشبه الاكراه⁽⁵³⁾ وتشمل مختلف المناطق التي أنشأوا بها محطات تجارية .

وبلغت أعداد العبيد المرحلين الى أمريكا فيما بين القرن 15 و 18 أرقاما ضخمة. فشحن من أنجولا وحدها خلال قرن ونصف ما يقرب من مليون و 400 ألف، وعلى طول مائة سنة فيما بين القرنين 16 و 17 تم شحن ما يعادل 10 آلاف رأس كل سنة من أنجولا وموزمبيق⁽⁵⁴⁾. وقد تمكن البرتغال من اخضاع الموزمبيق في نهاية القرن 15 وبذلك هددوا الوجود العربي بالمنطقة .

ومنذ سنة 1622 عملت عُمان على تقليص نفوذ البرتغال بإفريقيا الشرقية، فأعاد العمانيون سيطرتهم على تجارة الرقيق. لكن ما كادت تغرب شمس القرن 18 حتى تحكمت بريطانيا في طرق التجارة بين الهند وعمان، وضعفت الوساطة التجارية للعرب بين إفريقيا الشرقية والهند تبعا لذلك. ثم أعلنت بريطانيا إلغاء الرق سنة 1807م، واستمرت تجارة الرقيق مع ذلك بإفريقيا خلال فترة من القرن العشرين مع ضعف، تاركة مكانها بالتدريج للذهب والصمغ والعاج والجلود وبضائع أخرى⁽⁵⁵⁾. وتغاضى الأوروبيون عن تجارة الرقيق في إفريقيا الشرقية، هذه التجارة التي لم تضمحل إلا في أعقاب القرن 19 بزنجبار العربية والتي كانت تجارة الرق أساس تعاملها الاقتصادي⁽⁵⁶⁾ مع الهند وبلاد العرب ومصر وفارس .

وأظهر رجال الدين البريطانيون اهتمامهم بمحاربة الرق في إفريقيا

الشرقية حتى يزحزحوا النفوذ العربي هناك ويتمكنوا من ضم المناطق الخاضعة للعرب (57) وهكذا خاض العرب حربا ضروسا ضد البريطانيين .

وأسهم الهولنديون بنصيب في تجارة الرقيق انطلاقا من إفريقيا الجنوبية وساحل الأطلسي (ساحل الذهب) وعقدوا مع الفانتي وأوصلوا شحناتهم من البشر والبضائع الى شمال شرقي البرازيل وجزر الهند الغربية وفرنجنيا والمستعمرات الأسبانية (58) . وتمكن الهولنديون من زحزحة البرتغال عن محطاتهم بساحل الذهب سنة 1642 ثم 1872 عندما جددوا (أي البرتغال) محاولة انشاء محطة جديدة (59) وقام أوروبيون من دول أخرى بانشاء محطات، لكن هولندا وبريطانيا استبدتا لوقت طويل بتجارة العبيد في ساحل الذهب. بل إن عددا كبيرا من قبائل الفانتي بهذه المنطقة انضمت طواعية إلى الانجليز ضد الهولنديين. وعقدت تحالفات مع اليوروبا والداهومبي وسمي الجميع بساحل العبيد (60). وفي جنوب شرقي ساحل العبيد، حيث دلتا النيجر كان العبيد أقل مهارة في غير الأعمال الزراعية، ولذلك كانوا يشحنون بكميات كبيرة لهذه الغاية إلى البرازيل وأمريكا الشمالية خلال القرن الثامن عشر (61). وكان أهم تجار الرقيق في دلتا النيجر خلال هذه الفترة من البريطانيين والبرتغال. أما الفرنسيون فكانوا يشحنون العبيد من الغابون .

وبوجه عام، فإن عمليات شحن الرقيق شهدت « ازدهارها » على يد الأوروبيين فيما بين القرنين 16 و 19 أي على امتداد فترة تتجاوز ثلاثة قرون. ولم يختف النشاط الأوروبي في هذا المجال إلا في مطلع القرن العشرين. وفيما بين ذلك تطورت الأحداث كما يلي :

1727 — بدأ استنكار الرق في انجلترا من جانب المتعاطفين مع حركة تحرير العبيد .

1772 — أصدر اللورد مانسفيلد Mansfield كبير القضاة قانونا بمنع الرق،

لكن الرق ظل يمارس خارج انجلترا من امبراطوريتها وعلى يد الانجليز أنفسهم فضلا عن غيرهم .

1787 - نص دستور الولايات المتحدة على منع تجارة الرقيق لكن لم يطبق المنع إلا بعد ذلك .

1807 - حرمت تجارة الرقيق بمجموع الامبراطورية البريطانية.

1834 - تم تحرير مجموع الرقيق بالامبراطورية البريطانية وحذت بلاد أخرى حذوها. وفي نفس السنة أنشئت منطقة ذات استقلال ذاتي بإفريقيا باسم ليبيريا بعد أن أنشأت بريطانيا منطقة سيراليوني سنة 1787 وذلك شراء أو حجزا من الأهالي لايواء الزنوج الذين حررتهم أمريكا وبريطانيا ولينشؤوا دولة خاصة بهم، بعد أن ثاروا عدة مرات وكان كثير منهم يفر الى نوفاسكوشيا. واعترفت الولايات باستقلال ليبيريا سنة 1847 . وفي هذا السنة بالذات حرمت معاهدة هامرتون تصدير العبيد من إفريقيا .

1848 - حرمت فرنسا تجارة الرق .

1865 - حرمت الولايات المتحدة نهائيا تجارة الرق بعد حرب الانفصال، وكان الجنوبيون قد تشبثوا بتجارة الرق فلم ينفذ دستور الولايات بهذا الشأن حتى كانت 1865 .

1878 - أوقفت البرازيل تجارة الرق قانونيا .

1888 - توقفت نهائيا اجراءات الرق بالبرازيل .

1897 - تم تحرير العبيد نهائيا بزنيجار .

1901 - إلى هذه السنة كانت السفن البريطانية لا تزال تقبض على المهجرين باتجاه أمريكا .

1907 - تم تحرير العبيد بكينيا .

1919 - تم تحرير العبيد بتنجانيقا .

لقد أدى الرق بإفريقيا إلى ظواهر جديدة بعد التدخل الأوروبي خاصة. فعمليات البيع شملت أعدادا كبيرة جدا لم تكن معتادة في نطاق الرق الداخلي ولا العربي، وأدى ذلك كما لاحظ بعض المؤرخين⁽⁶²⁾ إلى حروب داخلية بين الجماعات المتنافسة على احتكار تجارة العبيد. وهكذا كانت عدة مناطق تضم قبائل أو جماعات همها الكسب من تجارة الآدميين وخزانات أو مستودعات تضم هؤلاء الآدميين المحكوم عليهم بالرق⁽⁶³⁾. وبدون شك راحت ثقافات وحضارات محلية ضحية هذا العدوان وتقهقر اقتصاد جهات كثيرة من إفريقيا وتزعزع الاستقرار وانعدم الأمن في غير ما منطقة .

الرق بين الشريعة الاسلامية والموقف الأوروبي :

إن أفرادا كثيرين من المجتمع الأوروبي وجماعات ومسؤولين في دول الغرب وقفوا مواقف انسانية من قضايا الانسان من حيث هو، ثم من حيث حقه في الحرية والكرامة البشرية. ولا شك أن بعض الثورات الوطنية في العالم الغربي ساهمت بقدر كبير في تركيز مبادئ الحرية والمساواة في الحقوق، بما في ذلك الثورة الفرنسية وحرب الاستقلال بالولايات المتحدة. وأدت هذه الحركات والمواقف الى سن قوانين وتطبيقها بشأن الغاء الرق، وحصل هذا الالغاء بإفريقيا بعد جهود طويلة وضد الأوروبيين أنفسهم، وأكثر من غيرهم .

لكن الموقف الأوروبي اعتمد بقدر كبير على نداءات الكنيسة التي اتخذت ذلك طريقا لتمسيح الافريقيين. والكنيسة نفسها لا تنطلق من مبادئ محددة في المسيحية بشأن الرق، فيما عدا أفكار الأخوة الانسانية والتسامح، التي طبعت آيات الأناجيل عموما. ومعنى هذا أنه لا

توجد تعاليم كافية عن تحرير العبيد، على الرغم من أن العبيد في الامبراطورية الرومانية أمكن إقبالهم على المسيحية أكثر من غيرهم أملاً في الخلاص من عذاب الرق. غير أن التوراة لا تخلو من اهتمام نسي بالرق، وقد يكون الاهتمام في اتجاه عكسي، فالمدين إذا لم يف بديونه يمكن أن يصبح عبداً لدائنه. ولا حدود لسلطة المالك على عبده. وهذا العبد يُقَوَّم بالمال كسلعة حتى ولو كان من أفراد الأسرة أو يعتبر كذلك. وبالمقابل تقف التوراة ضد الجور بشكل ما. فمن فقاً عين عبد أو أمة أو كسر سن أحدهما وجب تحرير المملوك إذا كان إسرائيلياً، ويحرر العبد الاسرائيلي بعد سبع سنين من الاسترقاق، أما العبد الأجنبي فهو في وضع أدنى، لكن هناك اجراءات تتجه نحو الروح الانسانية في جوانب أخرى، خصوصاً بالنسبة للأمة (64) .

وتناول الاسلام قضية الرق في صورها الانسانية والشرعية. وهو لم يلغ الرق بشكل حاسم، ولو فعل لاستحال الالغاء عملياً في مجتمع بشري يعيش أكثر من نصف حياته في حروب أو غارات أو فتن، ولا تخلو إحداها من استرقاق، لكن مجالات تحرير الرقيق متعددة وهي تسبق في الترتيب اطعام المساكين. وتُعطى الأفضلية لعنق العبد المؤمن، لكن كثيراً من الرقيق غير المؤمنين أعتقوا. والأحاديث والصور النبيلة في معاملة الرقيق كثيرة. قيل للرسول ﷺ : أي الرقاب أفضل ؟ قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها (65). وتدخل الرسول في إطلاق سبّي هوازن بعد استئذان الجيش. وقال : (من كانت له جارية فعالها (أنفق عليها) فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران). والرقيق المسلم يعد إخواناً لغيرهم من المسلمين. وبهذا الصدد يقول الرسول ﷺ : (من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم) (66) .

ومن أهم ما أقرته الشريعة الاسلامية جواز الفداء بالمال عن الأسرى بدل استرقاقهم. ومن أعتق يصح أن ينتسب الى مُعتقه بالولاء فيصبح مولى

له. ودخل عدد كبير من الأعاجم في نطاق الولاء، حتى تكونت حركة جديدة من الموالي في العصر العباسي الأول وكان لها شأن في المجالات الثقافية والسياسية قبل أن تبرز حركة الزنج التي ظهرت كثورة حقيقية ضد الطبقة .

وعلى العموم لم يسد في الأوساط الإسلامية ذلك الاذلال الذي وصل إليه العبيد في نطاق الرق الداخلي بإفريقيا الوثنية، وإن ظهرت حركة ازدياد للموالي خلال العصر الأموي وقبل أن تنعكس الأمور تقريبا بعد هذا العصر. غير أن حركة التسري وامتلاك العبيد بلغت شأوا بعيدا عند الفتح الإسلامية. وكتب الفقه في جلها لا تكاد تفرق بين الرقيق المسلم وغيره في مجال الأحكام العامة .

وبالرغم من أن عددا كبيرا من ذوي الأصول الزنجية والأعاجم قد تبوأوا مناصب عالية أو شغلوا مكانة متميزة في الوسط الثقافي أو الاجتماعي فإننا لا نسمع في تاريخ الفقه الإسلامي نداءات لالغاء الرق لا سيما بين المسلمين، بل نجد عالما إفريقيا جليلا في مطلع القرن 15 ينص صراحة على أن الوثني غير القرشي، إذا وقع في الأسر وأسلم لا يمنع إسلامه من استمرار الرق عليه « لأن الرق امتهان واستخدام بسبب سابقة الكفر أو مقارنته، زجرا عنه وتنفيرا منه » كما قال هذا الفقيه الواسع الاطلاع على الفقه المالكي (67) .

غير أن أحمد بابا الصنهاجي المالي خصص رسالته : معراج الصعود الى نيل مجلب السود، لتفنيد مزاعم الذين يجيزون استرقاق المسلم للمسلم وحمل بشدة على أفكارهم وروحهم الطبقية .

وعندما تولى عرش المغرب السلطان مولاي اسماعيل العلوي (توفي سنة 1727) أفتى عالم من بلاطه بجواز تملك الحراطين وهم المؤلّودون من أصول عربية وإفريقية، فأحدث ضجة أدت الى نكبة بعض المعارضين لفكرة زميلهم. وبالمقابل، اتفق الملكان محمد الثالث المغربي ولويس السادس عشر

الفرنسي سنة 1777 على إلغاء الرق بين المسلمين والمسيحيين بالنسبة لرعايا البلدين⁽⁶⁸⁾. وكانت هذه إحدى المبادرات القانونية الأولى لالغاء الرق في العصر الحديث من جانب قطر إفريقي، حتى وإن لم يطل أمد تطبيقها، لأن الاسترقاق من جانب أقطار الشمال الافريقي اتجه الى البحر بصفة خاصة بعد أن امتدت يد البرتغال وإسبانيا منذ القرن 15 إلى سواحل هذه المنطقة كما امتدت الى السواحل الأطلسية عموما. وأطلق الأوروبيون على هذه الحركة النضالية المضادة مصطلح القرصنة دون تمييز بين العمل النضالي وأعمال النهب لمجرد النهب، والتي كان يمارسها بحارة العالم في معظم البحار. وقرصنة سكان الشمال الافريقي والتي يسميها صاحب هذه السطور المتواضع، جهادا بحريا، دخلت فيها عناصر تركية وإفريقية وحتى أجنبية في خدمة المسلمين، وحركة الجهاد البحري لا بد أن يكون لها تأثير أساسي في قرارات انجلترا بالغاء الرق وليست الظروف الانسانية في الواقع، فالسفن الانجليزية بصفة خاصة كانت عرضة للسفن الجهادية في عرض البحر المتوسط لا سيما خلال القرنين 17 و 18 وهذا الى جانب السفن المعادية الأخرى وبالأخص سفن البرتغال والأسبان. وقد استولى الانجليز على جبل طارق سنة 1704 واعترفت لهم بملكيتها معاهدة 1713، وحيث إن مراقبة بريطانيا للحركة الملاحية من جهة هذا المنفذ الهام لم تحد من نشاط السفن الجهادية فإن نداءات الغاء الرق بدأت تأخذ شكلا حادا بعد قليل منذ 1727، وهذا التقارب بين الأحداث مرده الى أن السفن الجهادية كانت تستولي على أعداد كبيرة من البيض ركاب السفن المعادية وتسترقيهم ما لم يفدوا أنفسهم بالمال، أو يتم تبادلهم بأسرى من المسلمين. وإلى ذلك فإن وضع حد لبيع الرقيق يتيح لبريطانيا وسائر الأوروبيين، التفرغ لتجارة على نطاق أوسع مع افريقيا عن طريق أحلاف منتزعة أو مدسوسة، ويقوم المبشرون في ذات الوقت بعملية التنصير وانشاء مستوصفات وعلاج المرضى وتعليم الأطفال وتربيتهم في اتجاه يخدم ثقافة الأجانب ويحطم الجذور الطيبة للحضارات المحلية. وعملية تقسيم أقطار إفريقيا بين مجموعة من الدول الأوروبية في نطاق

أحلاف وأوافق سرية ما هي إلا تنويع لسلسلة متاسكة الحلقات ضاربة في جذور الزمن بدأها البرتغال على سواحل المغرب وتابعها المكتشفون ثم الارساليات فالتجار والمهريون ثم الجيوش والادارة المباشرة .

وإذا كان الرق قد تم إلغاؤه سنة 1807 بالامبراطورية البريطانية، فإن مؤتمر إيكس لاشايل سنة 1818 قد نص على منع القرصنة، لكن عمليات الجهاد البحري في جنوبي غرب البحر المتوسط لم تنته إلا في نهاية القرن 19 . وقد رأينا أن تقارب الأحداث وشكل تسلسلها يدين النوايا السياسية والامبريالية أكثر مما يثبت مصداقيتها .

ولا تخلو بعض النظريات الأوروبية الحديثة من تنويه بالدور الأوروبي في إفريقيا سواء من حيث الغاء الرق ونتائجه أو من حيث عملية تنصير السكان. وهكذا يرى دونيز بولم أن تجارة الرقيق اذا كانت قد دمرت كيانات المجتمعات القائمة فإن الأوروبيين قد استبدلوا بها إنتاج الفستق والكاكاو حيث يعدان أضخم حاصلات الغرب الافريقي، ومن ثم تغيير النظام الزراعي تغيرا جذريا على مساحات من الأرض لا حدود لها (69) .

ويعتقد دونالد ويدنر أن بريطانيا كانت تسعى حقا الى التسلط على تجارة القرن التاسع عشر، ولكن من الصعب أن نفهم سببا آخر لالغائها تجارة الرقيق، غير الدافع الانساني (70) .

والواقع أن مقدمات الغاء هذه التجارة تطلبت زمنا طويلا من العمل الأوروبي الموزع بين الكشف والتبشير والتجارة. وفكر الأوروبيون أن تذليل الصعوبات أمامهم في المجال الاجتماعي والاقتصادي يتطلب حوارا ونقطة التقاء هي بالذات تنصير الأفارقة الذي دشنه البرتغال في كل من المينا بساحل الذهب ومصب الكونغو التي تنصر ملكها سنة 1491 (71) .

ووقف الاسلام العربي في وجه الارساليات بشكل قوي في افريقيا الشرقية (72) وكانت الارساليات تفد من كل أجزاء أوروبا تقريبا، ومن مختلف

المذاهب. وتعد فرنسا في رأس قائمة النشاط الكاثوليكي، يليها البلجيكي والبرتغال والألمان والايطاليون والأسبان، كما كان هناك البروتستانت والأنجليكان وغيرهم .

وقلما كان هناك إقبال فردي على المسيحية (73) أما الاقبال الجماعي، فمن أسبابه تنصر الزعماء أنفسهم. وهؤلاء يتم اغراؤهم عقائديا وحتى بطرق أخرى مادية أو بشكل غير مباشر. فالمبشر يوالي الزيارات والاتصالات بالقبيلة وينشئ المستوصف والمدرسة، ويترجم الكتاب المقدس وينظم حملات ومهرجانات تثقيفية ويفرض نفسه كزعيم روحي (74). وقامت الكنيسة من جهتها بانشاء هيئة من الرهبان من الأهالي .

وبالمقابل فان الاسلام تركز في أقصى الشمال في خطوة أولى على يد العرب، وفي خطوة تالية أكبر، على يد السكان الوطنيين. وفي سائر أنحاء القارة تبنى أهل البلاد نشر الاسلام تارة باقتداء جماعي بزعيم أو ملك اعتنق الاسلام، وتارة بكيفية فردية، وطورا بفضل حركة الزوايا، وأخيرا في عمليات جهاد يتولاها مسلمون من أهل القارة، ضد الجماعات الوثنية، وفي هذا المجال الأخير يبرز موقف الاسلام حاسما وصرحا لأنه أكثر الديانات عدا للشرک والوثنية، ومن ثم تتجه الدعوة الاسلامية الى الزعماء (الوثنيين) بالدرجة الأولى، لأن أغلبهم زعماء روجيون أيضا. ورفضهم للدعوة يجر الى الحرب. وكيفما كان الأمر فالحملات ضد الوثنية معظمها أتى من الداخل عبر تاريخ القارة. وهذه الحملات تبرز أحيانا بالدوافع السياسية، أي بدوافع الهيمنة، هيمنة جماعة على جارتها كما يحدث في جهات أخرى من العالم وفي كل زمان .

إن زواج القارة، سواء أخضعوا للرق أو التنصير لم يكن موقفهم دائما عن رضی، كما أن مواجهتهم للإسلام القسري لم تكن على الدوام إيجابية. والمجتمع الافريقي لا يتحمل النخاسة ذليلا طائعا، فهو في حالات اليأس والعجز يصبر ويتحمل، ولكن تحمّل العاجز (75) .

ومقابل القضاء على تجارة الرق، يرى ويدنر أن الأوروبيين لم يأتوا بشيء سوى البضائع المادية وأن المسيحية والتعليم كانا يخفيان نفاق الأوروبيين حتى في نظر القبائل التي تحالفت معهم⁽⁷⁶⁾. ويذهب (باذل دافدسن) بعيدا عندما يقول : « إن التعميد في نظر الافريقي لم يكن إلا حفلة يحضر أمثالها كل يوم في داره وفي الغابة، والمسيحية لم تأت بجديد غير هذه الحفلة... كان يؤمن باله لا يختلف كثيرا عن إله المسيحيين، ولكنه كان يعبر عنه بأنه قوة إلهية واحدة تدبر الكون وتملك مصيره »⁽⁷⁷⁾ .

والحق أنه لا يمكن أن ننفي كل خير عن العمل الأوروبي بإفريقيا مهما كانت الدوافع، ولا ينبغي أن نجرد العرب من كل السلبيات عبر تاريخهم بهذه القارة. وأخيرا، فباستثناء التشريع الحمدي السليم، والذي اقتدى به الراشدون ووسعوه، يبقى الفقه الاسلامي في مجمله، أقل صفاء وجرأة، حول قضايا الرق، بالقياس الى ما جدّ من تشريعات في غيره من أبواب الفقه الاسلامي .

هوامش

- 1 — DE L'Andelyn (CH.): p. 134, Payot, Paris, 1958
- 2 — Op. Cit. p. 200
- 3 — Op. Cit. p. 236
- 4 — Op. Cit, pp. 433, 478, 502
- 5 — دونيز يولم Denise Paulme الحضارات الافريقية (سلسلة زدي علماً، رقم 62)، ص 172، 174
- 6 — م. س. ص 174
- 7 — دونالد ويدنر Donald Weidner، تاريخ إفريقيا، ترجمة الدكتور راشد البراوي، ص 89. القاهرة
- 8 — م. س. ص 90
- 9 — Philippe Parroy, in Revue Historama, hors série n° 42
- 10 — دونيز، م. س. ص 179
- 11 — توجد بعض النسخ الخطية من هذه الرسالة بالخزانة العامة بالرباط
- 12 — ويدنر، م. س. ص 134 — 135
- 13 — Ch. André Julien, Histoire de l'Afrique (col. Que sais - je,) p.68
- 14 — دونيز، م. س. ص 61
- 15 — ويدنر، م. س. ص 135 و :
Histoire de l'humanité, 3,736 - 737. Unesco, Robert Laffont, Paris
- 16 — بلاذري، فتوح البلدان، ص 314، بيروت، 1957/1377. ابن عبد الحكم عبد الرحمن القرشي،
فتوح إفريقية والأندلس، الجزائر 1948، ص 34
- 17 — باذل دافد سن، إفريقيا تحت أضواء جديدة، ص 105، ترجمة جمال م. أحمد. دار الثقافة. بيروت،
1961

- 18 — دونيز، م. س. ص 63. 64
- 19 — Histoire de l'humanité, 3, 734
- 20 — Op. Cit, p. 736
- 21 — Julien, Histoire de l'Afrique, p. 69
- 22 — ابن بطوطة، رحلة. 2. 204، القاهرة، 1377 — 1958
- 23 — ن. م. ص 205
- 24 — م. س. ص 207
- 25 — A. Julien, Op. Cit : p. 72
- 26 — باذل، إفريقيا... ص 154
- 27 — ن. م. ص 155
- 28 — م. س. ص 157
- 29 — م. س. ص 180
- 30 — يراجع عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان. نشره هوداس، باريز 1898، وحسب باذل دافد يحتمل أن يكون السعدي من أصل مغربي، وراجع : حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 2 ص 298 — 307
- 31 — ويدنر، تاريخ إفريقيا. ص 126
- 32 — م. س. ص 135
- 33 — ن. م. ص 137
- 34 — مسعودي، مروج الذهب، 4، 199 — 208، دار المعرفة، بيروت 1402%1982. الطبري محمد ابن جرير، تاريخ الأمم والملوك، 11، 174 — 326. طبعة مصورة، بيروت. ابن الأثير علي الجزري، الكامل، 5، 346 — 367. و 6، 2 — 54. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام... 3. 209 — 213
- 35 — مسعودي، مروج، 4، 195

- 36 __ Julien, Op. Cit. pp. 67 - 68
- 37 __ ويدنر، ص 151
- 38 __ Hist. de l'humanité, 3, 741
- 39 __ Op. Cit
- 40 __ باذل... م. س. ص 249
- 41 __ ن. م. وص
- 42 __ ن. م. وص
- 43 __ دونيز م. س. ص 83
- 44 __ Histoire de l'humanité, 3, 742
- 45 __ Philippe Parroy, Op. Cit
- 46 __ Op. Cit.
- 47 __ Olivier Redon, in Revue Historama (n° précité)
- 48 __ باذل... ص 124
- 49 __ A. Julien, Op. cit, p 79
- 50 __ ويدنر، ص 66
- 51 __ ن. م. ص 67
- 52 __ باذل... م. س. ص 194
- 53 __ ويدنر، م. س، ص 81
- 54 __ باذل... م. س. ص 195. وقيل إن ما بيع من رؤوس بشرية في إفريقيا الوسطى يقدر ب 13 مليوناً، وأوصله بعضهم إلى مائة مليون (Hist. de l'humanité 5, 1070)
- 55 __ Hist. de l'humanité, 5, 1068

Op. Cit. p. 1070__ 56

Ibid__ 57

58 — ويدنر. م. س. ص 75

59 — ن. م. ص 84

60 — ن. م. ص 76

61 — ن. م. ص 90

Hist. de l'humanité, 5, 1070__ 62

Ibid__ 63

Alfred Bertholet, Hist. de la civilisation d'Israël, pp 185 - 194. Paris, 1929__ 64

65 — البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، بيروت 1981/1401، ج 3، 121

66 — م. س. ص 123. ويراجع أيضا، ن. م. ص 116 — 128

67 — الونشريسي أحمد بن يحيى، المعيار المغرب، بيروت، 1981/1401، ج 9، 239

Hoefffer (M. F.), L'Univers, Afrique Australe + Le Maroc, Paris 1848, pp. 287, 369__ 68

69 — دونيز يولم. م. س. ص 201

70 — ويدنر، م. س. ص 102

Hubert Deschamps (Col. que sais - je), n° 632, p 102 (Paris)__ 71

Op. Cit. p. 105__ 72

Op. Cit. p. 110__ 73

Op. Cit. p. 111__ 74

75 — باذل، م. س. ص 197

76 — ويدنر، م. س. ص 108

77 — باذل... ص 203

د. إبراهيم حرکات